بينا السنابل قربها افتقرت الى حب الدقيق
فسمت الى جو السما تتعاض بالقدر الرشيق

***

وكذا ترون الناس دو مأ في الحياة ولا غلو
رأس المفكر ينحني والغر يشمخ للعلو

الاداب العربيّة

في الربع الاول من القرن العشرين

للاب لويس شيخو اليسوعي

لما انتهينا السنة ١٩١٠ من نشر كتابنا الذي رسمناه بالاداب العربية في القرن التاسع عشر كان قصدنا ان نشفعهُ بنظر عام عن احوال تلك الآداب وتطوُّرها في اوائل القرن العشرين فلم تسنح الفرصة بتحقيق نيَّتنا وانَّما اكتفينا بان نختمهُ بلحقين او فصلين موافقين لاحوال العشر الاوَّل من ذلك القرن الجديد دعوناهما : الحياة الدستوريَّة ومنظومات الوقائع الدستوريَّة في اربعين صفحة

لكننا لم نزل منذ ذاك الحين نجمع المواد لمواصلة العمل وتدوين اخبار قسم من آداب القرن العشرين اذا امدَّ الله بحياتنا . وها قد بلغنا بنعمتهِ تعالى الربع الاوَّل من هذا القرن فرأينا انَّ هذه الحقبة تستدعي تصنيف خلاصة ما جرى فيها من المشروعات والمساعي لرقي لغتنا الشريفة وما انتجتهُ قرائح الادباء لتعزيزها ورفع منارة آدابها . وها نحن نعرض عليهم هذه المجموعة فعساها تروق في اعينهم وتأتي لهم ببعض الفائدة

ولعلَّ البعض منهم ينسبوننا الى التهوُّر والثقة الزائدة بقوانا لما يلزم عملاً مثل هذا من المطالعة الكثيرة ووفرة المعارف وقد اتَّسعت في هذه السنين دائرة الآداب العربية اتِّساعاً كاد يستحيل على كاتب حصرها وضمّ اطرافها

نعم اننا نقرّ بهذه المشقّة ولم نزل نقدّم رجلًا ونؤخر اخرى حتى تردّد على فكرنا المثل السائر «ما لا يستطاع كلّهُ لا يُهمل قلّهُ» فان بناء المعارف كصرح شاهق غاية ما يُطلب من كلّ اديب ان لا يضنّ عليه بحجر صغير او كبير يزيد في بنيانهِ سمرًا

ومما ينشّطنا في مباشرة هذا العمل النظر الى ما حرّرهُ البعض من ذوي النجابة والهمّة القعساء فقرّبوا الينا نوعاً القيام به فاننا نجد في ما صنّفهُ في مصر الكاتب الهمام المرحوم جرجي زيدان في كتابهِ تاريخ الآداب العربية ونشرهُ في بيروت جناب الفيكونت فيليب طرّازي في تاريخ الصحافة العربية معلومات لم نجدها في وصف آداب القرن التاسع عشر . وكم نشرت المجلّات والجرائد في القطرين المصري والشامي من فصول حسنة يمكن الاقتباس من انوارها والاستقاء من مناهلها العذبة . فهي قد أحيت ذكر كثير من المعاصرين الافاضل لولاها لبقيت اسماؤهم خاملة مجهولة وحقٌّها ان يشاد بذكرها لتكون قدوة للناشئة وفخرًا للوطن

وقد قسمنا تاريخ هذه الآداب ثلثة اقسام . فالقسم الاوّل يشمل وصفها وتراجم اصحابها في الثاني السنين الاولى من القرن العشرين من اوّل السنة ١٩٠٠ الى اعلان الدستور العثماني في ٢٤ تموز ١٩٠٨ . ويتناول القسم العشر السنين التالية الى نهاية الحرب الكليّة في ١١ تشرين الثاني ١٩١٨ . ونخص القسم الثالث بالآداب العربيّة في هذه السنين الاخيرة الى ١٩٢٥

القسم الاول

الاداب العربيّة من السنة ١٩٠٠ الى ١٩٠٨

الباب الاول

نظر اجمالي في الآداب العربية

في بدء القرن العشرين

قد اتّفق ذوو الفراسة وارباب الحكمة والنظر على القول بانّ لكل قرنٍ ميزةً

تفوزهُ من سواه كما انَّ لكلّ دولة وسُلالة سياه خاصَّة تتَّسمان بها وتفرقهما عن خلافهما

كان القرن العشرون جيل انتباه ويقاظة لاهل الشرق فانهم استفاقوا من سِنَتهم العميقة واستنشقوا رائحة الحريَّة باختلاطهم مع الشعوب لدى نفوذ الاجانب بينهم ومهاجرتهم الى انحاء المعمور فأثَّر ذلك في افكارهم واخذوا يسعون الى اماطة التمائم التي كانت الدولة العثمانيَّة عوَّذتهم بها ونَزْع اللفائف التي كانت قمَّطت بها حياتهم الروحيَّة. وكان اذ ذاك السلطان عبد الحميد في عزّ مجدهِ يسوس رعاياهُ بقضيب من حديد لا يأنف من سفك دماء كلّ من يحاول النجاة من نيره الثقيل

ومن مميزات هذا العصر اتساع نطاق العقول بالوسائل الجديدة التي قرَّبت اليها رقيًّا وأثارت بصائرها وشحذت افكارها. واخصّها المدارس التي شاعت في نفس القرى فضلًا عن المدن. بينها الجامعات والمدارس العليا والوسطى والابتدائيَّة كان يتقاطر اليها الاولاد من كل طبقات الاهالي حتى الفقراء واليتامى. ففتحت لكثيرين منهم سبلًا جديدة للارتزاق بصفة كتبة واطباء ومحامين ... ومن وتجَّار اصوليين جاروا الغربيين في مضمار الحضارة والتمدُّن. وخرج بعضهم من الجامعات الاوربيَّة فأتقنوا علومها كسائر الغربيين

وكذلك عرف الشرقيُّون ما في الاتحاد من القوَّة فأخذوا على مثال الغربيين يؤلفون الجماعات الادبيَّة لتعزيز اللغة العربيَّة ونشر آثارها. لكنها لم تثبت لعدم اتفاق اعضائها ولنفور الحكومة منها خوفاً على سياستها

وقد ساعد على ترقي الآداب العربيَّة في الشرق انتشار الصحافة وتوفُّر المطابع والمطبوعات فانَّ العدد العديد من المتخرّجين في المدارس تحفَّزوا للكتابة فانشأوا من الجرائد السيَّارة والمجلَّات عدداً كاد لا يفي بهِ احصاء سواء كان في الوطن ام في المهجر وقد بيَّن ذلك جناب الفيكونت دي طرّازي في كتابهِ المتَّع عن الصحافة فعدَّد منها العشرات مع كونهِ لم ينشر بعد ما استجدَّ منها في القرن العشرين. وابرزوا مع المجلَّات مئاتٍ من المطبوعات في كلّ علم وفنّ اصبحت المكاتب تضيق عن جمعها. وبين هذه المطبوعات عدد وافر من مخطوطات القدماء كانت ضائعة في زوايا المكاتب استخرجوها من مطاميرها فأتت مساعدةً للنهضة الادبيَّة

ولعلّ المستشرقين اصابوا قصبة السباق في هذه الحلبة فانّهم ابرزوا من مكاتبهم تآليف نادرة تهافت على درسها طلبة الآثار القديمة. وقد تنافسوا في نشر هذه الكنوز الادبيّة في كلّ الدول لم يثبطهم في العمل ما كانوا يجدونهُ من العناء والمشقات وكثرة النفقات. وكانت في الوقت عينهِ مجلّاتهم الاسيويّة لا تدع بحثاً مهمًّا في سائر فنون الشرق إلّا خاضت فيهِ وقد احتفل البعض من اصحابها بعرسهم الفضي والذهبي بل بلغ بعضها السنة المئة لانشائها كالجمعيّتين الاسيويّتين الفرنسويّة والانكليزيّة

وزادت ايضاً في بدء القرن العشرين المكاتب التي تمكّن الباحثون من مراجعة مخطوطاتها كمكاتب الاستانة والشهباء وبغداد. واتّسعت مكتبتنا الشرقيّة فخُصّ بها معهد واسع لضيق مكانها السابق فبلغ عدد مطبوعاتها الشرقية ثلثين الفاً فضلاً عن ثلثة آلاف مخطوط من منتخب المصنّفات العربيّة الاسلاميّة والنصرانيّة

ولحقت المكاتبَ المتاحفُ التي اخذت في اوائل القرن العشرين تُلفت انظار الشرقيين فودُّوا لو تُستحضر لهم متاحف تُجمع فيها الآثار العربية خصوصاً والشرقيّة عموماً على مثال المتاحف الاوربيّة فعُرضت في بيروت في باحة السراية القديمة بعض الآثار المكتشفة في المدينة وكان لمتحفي كليّتي اليسوعيّة والاميركانيّة شأن اعظم. وقد ابتنى الاميركان بناية خاصّة بتلك الآثار احسنوا هندامها وتنظيمها

وكان الاجانب في مصر قد سبقوا الشام الى ذلك بمتحفي الاسكندريّة والقاهرة استفاد منهما الاثريّون بما نشروهُ في مقالاتهم الرائقة. ومثلهما متحف الاستانة الذي نُقل اليهِ كثيرٌ من عاديّات سوريّة وفلسطين منها التابوت المعروف بتابوت الاسكندر قُبر فيهِ احد ملوك صيدون

وقد أدّى امتزاج الشرق بالغرب في اوائل القرن العشرين الى التطوّر في اساليب الانشاء نثرًا ونظماً فاخذ البعض يُنشئون على منوال الخياليين (les romantiques) بما يدعونهُ النثر الشعري او الشعر النثري فيرصفونهُ كمقطّعات شعريّة وينسقونهُ دون ارتباط كبير في المعاني سواء ارادوا ان يتمثّلوا بالسُّوَر القرآنيّة او يقتدوا ببعض المُحدثين من كتبة الفرنج

وقد اكتسب الشعر من طريقتهم ان خرج من دائرتهِ السابقة الضيّقة واخذ اصحابهُ يتفنّنون في نظمهِ صورةً ومعنًى. فترى الدواوين الجديدة مشحونة بالقصائد

في كلّ الوقائع المستحدثة والحوادث التاريخيّة والاختراعات الجديدة وتُصوّر كل عواطف الانسان وكلّ مظاهرات الكون. وربّما تحرّروا ايضاً فيها عن البحور الشعريّة فوضعوا طرائق مختلفة لنظم اشعارهم وابراز شواعرهم

وقد اكثروا من وضع الروايات الخيالية ونقلوا ما شاع منها في البلاد الى العربيّة فغلبت في اذهان الكتبة والقرّاء قوّة الاحساسات والشواعر التخيُّليّة على قوّة العقل ورزانة الفكر . على انّ ذوي الذوق السالم واصالة الرأي لم ينخدعوا بهذه القشور وثبتوا على الكتابة السلسة المنسجمة التي شاعت في عصور اللغة الذهبيّة ففضّلوا اللبّ على القشر والجوهر على السطحيّات

(لهُ تتمّة)

مطبوعات شرقيّة جديدة

Le Siège Apostolique (359-451) par Mgr Pierre Batiffol. 1 vol. in-12, pp. VII-624, Paris, Gabalda, Prix 15 f.

الكرسيّ الرسولي من السنة ٣٥٩ الى ٤٥١

هذا التأليف بقلم احد جهابذة الكتبة الفرنسويين في عصرنا المنسيور باتيفول رئيس جامعة تولوز سابقاً. كان تولّى درس تاريخ الكنيسة الكاثوليكية في قرونها الاولى فأنجز منهُ قبلًا الجزئين الاوّلين كان مدارهما على الكنيسة الاولى الى زمن قسطنطين ثم الى النهضة الاريوسيّة . وفي هذا الجزء الثالث يتابع بيان احوال الكنيسة الرومانيّة من عهد قسطنس الثاني نصير اريوس الى فوز البابويّة في المجمع الخلقيدوني بعد سقوط الاريوسيّة وحرم البدعتين النسطورية واليعقوبيّة. والكتاب محرّر بانشاء بليغ وعلم واسع وتدقيق عجيب لا يدَع للخصم سبيلًا للانتقاد ل.ش